

الأنثروبولوجيا في الجزائر ورؤاها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

مقدمة :

تمتلك الجزائر تاريخاً طويلاً مع الدراسات الأنثروبولوجية منذ القرن التاسع عشر. فالتنوع الاجتماعي والديني واللغوي والمجالي جعلها مركز اهتمام لعدد كبير من الباحثين الأوروبيين. ومع مرور الزمن تطور البحث من النظرة الاستعمارية الضيقة إلى دراسات نقدية ثم إلى مدرسة جزائرية بعد الاستقلال.

هذه المحاضرة تقدّم رؤية واسعة للمراحل الأساسية والرواد والاتجاهات التي ساهمت في بناء المعرفة الأنثروبولوجية حول الجزائر.

المحور الأول: الأنثروبولوجيا الكولونيالية:

تطور البحث الأنثروبولوجي في الجزائر عبر مراحل مختلفة بدأت مع الإدارة الاستعمارية التي حاولت فهم المجتمع المحلي لفهم طرق تنظيمه. تنوع الفضاء الاجتماعي بين القبائل والزوايا والمدن والمناطق الجبلية والصحراوية جعل الجزائر مجالاً مفتوحاً لدراسات ركزت في البداية على الوصف المباشر، ثم تطورت إلى تحليل نقدي، وبعد الاستقلال ظهر جيل جزائري قدّم قراءة جديدة للمجتمع. هذه المرحلة بدأت مع دخول الإدارة الاستعمارية فالهدف لم يكن معرفياً فقط بل أيضاً سياسياً، ومع ذلك تركت لنا عملاً ميدانياً ضخماً ما زال يُستخدم اليوم لأغراض علمية.

1. إميل ماسكاري - دراسة القبيلة والبنية الاجتماعية

يعدّ من أوائل من درسوا القبائل الجزائرية بشكل مباشر، عمله يركز على مناطق الأوراس والقبائل، وهما منطقتان حافظتا على تقاليد عريقة، فقد شهد القرن التاسع عشر بداية الدراسات الكولونيالية التي اعتمدت العمل الميداني والاحتكاك المباشر بالسكان. قدم إميل ماسكاري وصفاً دقيقاً للبنية القبلية في الأوراس والقبائل. رأى أن القبيلة بنية سياسية تملك مجالس وطرق تحكيم وقواعد واضحة للسلطة، وربط ذلك بالبيئة الجبلية التي تؤثر في شكل التنظيم الاجتماعي. بعده جاء تشارل ليتورنو الذي اعتمد النظرية التطورية ودرس الأسرة والقرابة في شمال أفريقيا. رغم محدودية رؤيته، إلا أن عمله يوضح طريقة التفكير السائدة في أوروبا. في الفترة نفسها اهتم إدمون دوئي بالدين الشعبي فتابع الطقوس اليومية مثل الزار وزيارة الأضرحة ودرس الطرق الصوفية ودورها في التضامن والحياة الاجتماعية.

أهم أفكارهم:

إميل ماسكاري:

كان إميل ماسكاري مستشرقاً فرنسياً كلّف من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية في القرن التاسع عشر بإجراء دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية معمقة حول القبائل البربرية في الجزائر. ركزت أبحاثه على تشكيل المدن لدى السكان المستقرين في مناطق مثل جبال جرجرة، الأوراس، ومنطقة ميزاب، كما فتح الباب أمام الأبحاث حول التراث الإباضي. شملت اهتمامات ماسكاري أيضاً الدراسات اللغوية للغة البربرية وحقق ونشر كتاب "تاريخ أبي زكريا" عام 1878. وعلى الرغم من أهمية أعماله كوثائق تاريخية، إلا أن بعض الباحثين الجزائريين ينظرون إليها بعين النقد، معتبرين إياها دراسات غير موضوعية وعنصرية هدفت إلى خدمة المصالح الاستعمارية الفرنسية. وتلخصت أهم أفكاره في ان:

- القبيلة عنده ليست تجمع أفراد بل نظام سياسي واجتماعي.
- العروش تملك قواعد داخلية تنظم علاقات السلطة والمسؤولية.

- القضاء العربي يخضع لقواعد دقيقة تعتمد على الوساطة والتسويات.
 - البيئة الجبلية تفرض نوعاً خاصاً من التنظيم الاجتماعي.
 - اعتمدت دراسات لاحقة كثيرة على ملاحظاته حول المجتمع الجزائري لأنها توثق مرحلة ما قبل التحولات الكبرى.
- (Masqueray 1886)

2. شارل ليتورنو - النظرية التطورية

كان عالم الاجتماع الفرنسي شارل ليتورنو (Charles Letourneau, 1831-1902) باحثاً بارزاً في الإثنولوجيا وتطور المجتمعات البدائية، وقد تضمنت دراساته إشارات موجزة إلى الجزائر ضمن إطار نظريته التطورية الشاملة. اعتمد ليتورنو على المنهج المادي العلمي لتتبع مراحل تطور المؤسسات الاجتماعية كالقانون والأسرة، وأشار إلى المجتمعات الأفريقية، بما فيها الجزائرية، كأمثلة توضيحية لما اعتبره مراحل "بدائية" في هذا التطور البشري، مما يعكس المنظور الأنثروبولوجي السائد في عصره . مثل اتجاهها انتشر بقوة في أوروبا في القرن التاسع عشر فبالرغم من محدودية رؤيته، إلا أنه أدخل شمال أفريقيا في النقاش الأنثروبولوجي العالمي حيث:

- درس الأسرة والعلاقات القرابية من منظور تطوري.
- حاول ترتيب المجتمعات حسب مستويات "التقدم".
- ركز على المقارنة بين الشعوب.

طروحاته لم تعد مقبولة علمياً، لكنّها توضح كيف كانت أوروبا تنظر إلى المجتمعات المغاربية- **Letourneau 1892** :

3. إدمون دوتي - الدين الشعبي

إدموند دوتي (1867-1926) هو عالم أنثروبولوجيا وسوسيولوجيا فرنسي من "مدرسة الجزائر"، اشتهر بدراساته الإثنوغرافية للمجتمع في شمال أفريقيا، وخاصة الجزائر، مع التركيز على الدين والمعتقدات الشعبية مثل السحر وعبادة الأولياء .عمل دوتي أستاذاً في المدرسة العليا بالجزائر العاصمة وقام برحلات استكشافية، وساهمت أبحاثه، التي كانت جزءاً من مشروع استعماري منهجي، في فهم الإدارة الفرنسية للمجتمع الجزائري لتعزيز هيمنتها. من أهم مؤلفاته المرتبطة بالجزائر: كتاب الإسلام الجزائري في عام 1900 وكتاب السحر والدين في شمال أفريقيا .

بصفته جزءاً من "مدرسة الجزائر" الاستشراقية، ركز إدموند دوتي في أفكاره حول الجزائر على العلاقة المعقدة بين الدين الإسلامي الشعبي والممارسات السحرية في المجتمع المغاربي .ويمكن تلخيص أبرز أفكاره في النقاط التالية :

-**فصل الإسلام عن الدين الشعبي** : اعتبر دوتي أن هناك نوعاً من الازدواجية بين الإسلام "الرسمي" أو العقائدي، وبين الدين الشعبي الذي يشمل الممارسات السحرية والطقوس المرتبطة بعبادة الأولياء والأضرحة.

-**تفسير المعتقدات الدينية عبر السحر** : رأى أن ممارسات السحر تهدف إلى التواصل مع قوى خارقة للطبيعة، مثل الجن، لتحقيق أهداف عملية مثل الشفاء أو كسب الثروة.

-**المغرب الأقصى والمغرب الأدنى** : ميّز دوتي في دراساته بين منطقتين في المغرب (الجزائر والمغرب)، معتبراً أن "المغرب الأقصى" (المغرب) يمثل نموذجاً أكثر "أصالة" للإسلام من "المغرب الأدنى" (الجزائر)، الذي تأثر بشكل أكبر بالاستعمار.

-توظيف الاستعمار للأبحاث :كانت أبحاث دوتي، مثل غيره من المستشرقين الفرنسيين، تُستخدم لخدمة الأهداف الاستعمارية. وقد ساعدت دراساته الإدارة الفرنسية على فهم المجتمع الجزائري والتحكم فيه، كما روجت لنظرة دونية للممارسات الدينية الشعبية.

-صورة نمطية للإسلام الشعبي :وصف دوتي في بعض كتاباته مظاهر من التدين الشعبي الجزائري بصورة سلبية، حيث صور بعض الشيوخ الصوفيين والأولياء بأنهم جهلة أو حتى مجانين .

باختصار وضع أول دراسة واسعة حول الدين الشعبي في الجزائر.وتجسدت اهم افكاره في:

- متابعة ممارسات الزار والأضرحة والسحر الشعبي.
- دراسة الطرق الصوفية كقوة اجتماعية تؤثر في التعليم والتضامن.
- فهم علاقة الناس بالمقدس من خلال الفعل اليومي.

ويعد كتابه مرجعا أساسيا لدراسة الدين الشعبي في المجتمعات المغاربية 1900 Doutté .

المحور الثاني: الأنثروبولوجيا الدينية - لويس ماسينيون

4. لويس ماسينيون - التصوف والمجتمع الجزائري

من أهم الباحثين الذين ربطوا التحليل الديني بدراسة المجتمع حيث رأى أن التصوف مفتاح أساسي لفهم القيم والسلوك. برزت الأنثروبولوجيا الدينية مع لويس ماسينيون الذي ركز على التصوف واعتبره جزءا أساسيا من الحياة الأخلاقية في المجتمع الجزائري، حيث تابع الرموز والطقوس وشرح فكرة الضيافة التي رآها عنصرا مركزيا في العلاقات الاجتماعية. فتح هذا المسار الطريق لقراءة المجتمع من داخل منظومته الروحية، وليس فقط من خلال البنية القبلية.

خلال زيارته الأولى إلى الجزائر، اكتشف المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون الإسلام، وأصبحت عائلته مرتبطة بالجزائر من خلال شخصيات أثرت على حياته .

الجانب	التفاصيل
الزيارات والاكتشاف	قام ماسينيون بزيارته الأولى للجزائر، حيث بدأت علاقته بالإسلام.
روابط عائلية	كانت عائلة ماسينيون على صلة وثيقة بالجزائر من خلال شخصيات تركت أثراً كبيراً في حياته.
تقارير وأبحاث	أعد ماسينيون تقريراً في عام 1913 للجنة المتبوية للجزائر، بعنوان "مهمة دراسية حول حركة الأفكار الفلسفية في البلدان الناطقة باللغة العربية."
الدفاع المظلومين	كان ماسينيون مدافعاً عن حقوق المظلومين واللاجئين، بما في ذلك ضحايا الظلم خلال حرب الجزائر.
الموقف الاستقلال	تأثر ماسينيون سلباً باستقلال الجزائر وطرده بلاده منها.
الموقف التصوف	عُرف ماسينيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي. ومع ذلك، انتقدته بعض المصادر الجزائرية، حيث اعتبرته بعضاً محباً للإسلام بينما اعتبره آخرون أداة استعمارية.

النقد	في عام 1984، عقد ملتقى وطني في فندق السفير بالجزائر لمناقشة ما يسميه البعض "المقاومة الفكرية" للاستعمار. وقد شكك هذا الملتقى في دوافع ماسينيون الحقيقية، خاصة فيما يتعلق باهتمامه بالتصوف الإسلامي.
-------	---

أبرز أفكاره

- التصوف عنصر يشكّل الروابط الأخلاقية داخل المجتمع.
- "الضيافة المقدسة" تعبير عن القيم المتجذرة.
- الرموز الدينية تحدد علاقة الفرد بجماعته.

اعتمدت أجيال من الباحثين على كل ما كتبه حول الروحانيات في المجتمعات المغاربية **Massignon 1909**.

المحور الثالث: الجغرافيا الإنسانية والأنثروبولوجيا

5. جون دي ديسوا - الإنسان والبيئة الطبيعية

قدم دي سبوا رؤية توضح كيف تؤثر البيئة على طريقة العيش والبنية الاجتماعية، حيث قدّم توجهها جديدا ربط الإنسان بالمجال الطبيعي و الجغرافي. درس تنقل السكان في الصحراء والجبال، وحلل أثر المناخ وطبيعة الأرض على طرق العيش. أظهر أن البيئة ليست خلفية محايدة، بل عنصر يعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. هذا التوجه أصبح لاحقا جزءا من الجغرافيا البشرية في الجزائر وبرز افكاره:

- دراسة التنقل والاستقرار في الجبل والصحراء.
- تحليل أثر المناخ والأرض وأنماط العيش.
- فهم العلاقة بين المجال والاقتصاد المحلي.

ومن هنا تحولت أفكاره إلى أساس للدارسين في الجغرافيا البشرية في الجزائر **Despois 1953**.

المحور الرابع: الأنثروبولوجيا النقدية

6. بيار بورديو و بناء النظريات انطلاقاً من الجزائر:

عاش عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو في الجزائر خلال الفترة **1956-1960** عقب خدمته العسكرية (وصل بورديو إلى الجزائر كجندي عام 1955، ثم عمل أستاذاً في كلية الآداب بجامعة الجزائر من عام 1958 إلى 1961. وقد أدت هذه الإقامة إلى تحول كبير في مساره من الفلسفة إلى علم الاجتماع). حيث أجرى أبحاثاً إثنوغرافية معمّقة، خاصة في منطقة القبائل، شكّلت الأساس النظري لعدد من مفاهيمه السوسيولوجية المركزية مثل الهايتوس ورأس المال الاجتماعي والثقافي والمجال الاجتماعي. انصبّ اهتمامه على دراسة المجتمع الجزائري في سياق الحرب، وتوثيق الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية والعادات، ما مكّنه من بناء تحليل شامل لبنية المجتمع يتجاوز العوامل الاقتصادية نحو العوامل الثقافية والرمزية كـ"الشرف الاجتماعي". وأثمر هذا العمل مجموعة من المؤلفات البارزة، أبرزها "علم اجتماع الجزائر" (1958) (الذي لقي نجاحاً واسعاً، و**"العمل والعمّال في الجزائر" (1963)** المبني على بيانات ميدانية وإحصائية حول الطبقة العاملة، إضافة إلى "صور

من الجزائر "الذي جمع بين الكلمة والصورة في توثيق المجتمع الجزائري. وقد شكّلت تجربته الجزائرية نقطة تحول فكرية أثرت بعمق على رؤيته النقدية لآليات التفاوت الاجتماعي ودور الثقافة والسلطة في إعادة إنتاج البنى الاجتماعية.

ومن خلال مشاهدته المباشرة للتحويلات جعلته يقدم نظريات مؤثرة علمياً مع منتصف القرن العشرين ظهرت الدراسات النقدية. بيار بورديو عمل خلال فترة الاستعمار وعاش تغيرات عميقة. درس القبائل وقدم مفهوم الهابيتوس لفهم ممارسات الأفراد التي تتشكل داخل المجتمع. تناول السكن والهجرة الريفية والشرف والاقتصاد المحلي وشرح أثر الاستعمار على البنية الاجتماعية. جيرمين تيون ركزت على العائلة والنساء في الريف ودرست بنية البيت الكبير وعلاقة الشرف بالقرابة. قدمت نقداً واضحاً للسياسات الاستعمارية لأنها تجاهلت الواقع الاجتماعي. ومن أهم أعماله:

تطوير مفهوم الهابيتوس. تحليل الشرف والقرابة. دراسة السكن والهجرة الريفية. فهم أثر الاستعمار على البنية الاجتماعية

Bourdieu 1960

-أبرز أعماله عن الجزائر

➤ سوسيولوجيا الجزائر (1958): كان أول عمل له، حيث درس فيه التكوين الاجتماعي للجزائر تحت الاستعمار، وركز على المجتمعات المحلية المختلفة مثل القبائل والشاوية والمزابيين.

➤ العمل والعمال في الجزائر (1963): كتاب جماعي يعتمد على بيانات إحصائية لفحص تأثير الرأسمالية على العمال المهاجرين والتحويلات الاقتصادية.

➤ اقتلاع الجذور (1964): بالتعاون مع عالم الاجتماع عبد المالك صياد، حلل فيه الآثار الناتجة عن تشريد السكان القرويين وتهجيرهم خلال الحرب.

➤ الجزائر 60 (1977): نسخة من كتاب العمل والعمال في الجزائر، لكنها خالية من المادة المنهجية والإحصائية.

➤ بؤس العالم (1993): رغم صدوره بعد عودته لفرنسا، إلا أن تجاربه في الجزائر شكّلت مرجعية أساسية لكثير من أفكاره فيه.

7. جيرمين تيون - نقد الاستعمار وبنية العائلة

. مُلخّص لأهم لمهّمات جيرمين تيون في الأوراس (1935-1940)

بعد إنهاء دراساتها في مدرسة اللوفر ومعهد الإثنولوجيا سنة 1934، ابْتُعِثت جيرمين تيون إلى جبال الأوراس لدراسة مجتمعات الشاوية ضمن منحة للمجتمع الدولي للغات الإفريقية. ولغياب معرفتها السابقة بالمنطقة، شرعت بتعلّم الأمازيغية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس.

قامت تيون بين 1935 و1940 بمهّمتين ميدانيتين في الأوراس، رافقت في الأولى زميلتها تيريز ريفيير قبل أن تواصل العمل منفردة بعد عودتها إلى باريس. استقرّت في مناطق متباعدة حول جبل أحمر خدو، خصوصاً في كيمل وكباش (دوار تاجموت)، حيث أجرت دراسة معمّقة لأعراس أولاد عبد الرحمن، الذين قدّرت عددهم سنة 1936 بـ 779 فرداً موزّعين على 92 عائلة، وجمعت حولهم معطيات إثنوغرافية شكّلت لاحقاً موضوع أطروحتها.

كشفت إقامتها عن توترات اجتماعية وسياسية في المدن الجزائرية، ولا سيما بعد لقاء الدكتور شريف سعدان ومثقفين آخرين مثل محمد بن جلول، وهو ما أعاد تشكيل فهمها للعلاقات الاستعمارية. ومع تزايد نشاط الحركة الوطنية بقيادة مصالي الحاج، أصبحت تيون على وعي مبكر بالأزمة الكولونيالية المقبلة، فطلب منها في باريس سنة 1938 تقديم تقرير عن الوضع في الجزائر.

ورغم أن جزءًا كبيرًا من أعمالها الميدانية فُقد خلال الحرب العالمية الثانية، فقد خلّدت تجربتها لاحقًا في كتاب «كان يا مكان: الإثنوغرافيا» (2000) ثم «الجزائر الأوراسية» (2005) اللذين أعادا إبراز قيمة أرشيفها الإثنوغرافي حول منطقة الأوراس ومجتمعها الجبلي المعقد.

في 1 نوفمبر 1954، انطلقت ثورة التحرير الجزائرية بهجمات في جبال الأوراس. كُلفت جيرمان تيليون بمهمة مراقبة لمدة ثلاثة أشهر لتقييم الوضع الاجتماعي والاقتصادي، ولاحظت انهيار المجتمع التقليدي ونزوح السكان الريفيين نحو المدن. في فبراير 1955، عُينت مسؤولة عن الشؤون الاجتماعية والتعليمية بديوان الحاكم العام، وظلت مرتبطة بالمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي.

عام 1957، زارت قبائل الطوارق، وكتبت نصًا عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي في الجزائر نُشر لاحقًا وأثار انتقادات لعدم تناوله السياسة. أدلت بشهادتها دفاعًا عن المناضل محمد بن صادق، ثم انخرطت في متابعة قضايا المعتقلين، مثل ياسف سعدي، وسعت لنقلهم للعدالة المدنية، وشاركت لاحقًا في مجموعة Vérité-Liberté لمتابعة حقوق الإنسان في الجزائر.

شرحت بنية “البيت الكبير”. ”تحليل علاقة الشرف بالقرابة. نقد السياسات الاستعمارية. و أعادت تعريف البحث الأنثروبولوجي في المغرب العربي 1966 Tillion .

المحور السادس: الأنثروبولوجيا الجزائرية بعد الاستقلال

بعد 1962 ظهر جيل جديد من الباحثين الجزائريين الذين أعادوا بناء المعرفة المحلية.

أبرز الأسماء: مصطفى لشرف، محمد أركون، ابو القاسم سعد الله وغيرهم.

سمات هذه المرحلة

- تجاوز الروايات الاستعمارية.
- دراسة الدولة والمجتمع الحديث.
- التركيز على العائلة والحركات الاجتماعية.
- اعتماد العمل الميداني في المجتمع الجزائري.